الجاحظ بين المعرفة والتأليف

الدكتور مصطفى محمود يونس

لقد رزق الجاحظ حظا وافرا من العلم ، وأوتى نصيبا كبيرا من الثقافة ، وحصل جوانب متعددة من المعرفة ، وأتاحت له الحياة أن يكون شيخا من شيوخ البلاغة والفصاحة والبيان ٠

فهل توفرت للجاحظ اسباب التأليف ؟ وهل اكتملت له العوامل التي خلقت منه مؤلفا عظيما ، وفي ذات المكانة التي وصل اليها عالما وأديبا ؟

سؤال يحتاج الى كثير من العناء ليمكن أن تكون الاجابة سديدة وافية ، ذلك أن كثيرا من العلماء النابهين ، والادباء الممتازين لم تتح لهم الحياة أسباب التأليف ، أو أتاحت لهم الاسباب ، ولكنهم لم يأخذوا أنفسهم بها ، ويغتنموا توفرها ، فظلت معلوماتهم حبيسة أذهانهم ، لم يضمها كتاب ، ولم يحتو عليها مؤلف ، ولم ينتفع بها من بني البشر الا من أتاحت له ظروفه أن يعيش على مقربة من أستاذه ، وأن يكون راغبا في تدوين ما يسمع منه ، وما يأخذ عنه ، وقد ينشر التلميذ ما يسمع أو يأخذ ، وقد يتركه يضيع في زوايا النسيان ٠

ان يكن ذلك شأن كثير من العلماء النابهين والادباء الممتازين ، فان حظ الجاحظ كان الى حد كبير يختلف عن هؤلاء فقد أتيحت له أسباب التأليف وكان حريصا على استغلال هذه الأسباب فأنتج هذه

الثروة الضخمة من الكتب ، وخلف هذا العدد الضخم من المؤلفات ، وترك هذه المكتبة العامرة بألوان المعرفة سواء منها ما حظى بالنشر فاستمتعت بقراءته ملايين الناس ، أو ماظل مخطوطا فانتفعت به فئة قليلة من طلاب البحث ، وعشاق المعارف ، أو ما ضاع في طريق الوصول الينا فلم نظفر بلقائه والتمتع بالاطلاع عليه . ان يكن شيء من هذا أو ذاك فان الجاحظ قد أتيح له من أسباب التأليف ما لم يتح لغيره من العلماء ، واستغل هذه الاسباب كما لم يستغلها أحد مثله . وأول هذه الأسباب التى دفعت بالجاحظ الى أن يكون مؤلفا له شأنه هذه العاطفة القوية التى نشأت بينه وبين الكتاب منذ بدأ يعرف نفسه وأقل ما يقال في هذه العاطفة انها عاطفة حب عميق ملأت عليه كيانه وأسرت منه جوانبه فهو يندفع اليها بكل ما أوتى من قوة لايدع فرصة دون أن يغتنمها ، ولا فسحة دون ان يقتصها حتى حين كان يخطو خطواته الأولى في طريق مليئة بالمتاعب مفروشة بالاشواك مقسم القلب موزع النفس بين حاجات أمه ومتطلبات العيش لأسرته وبين ما تنزع اليه نفسه من راحة بين أفياء الكتب وظلال المعرفة وقد أشار الى ذلك المرتضي في سياق ترجمته للجاحظ اذ يقول : انه كان في حداثته مشتغلا بالعلم وأمه تموته فجاءته يوما بطبق عليه كراريس فقال ما هذا ؟ قالت : هذا الذى تجيء به فخرج مغتما وجلس في الجامع وعويس بن عمران جالس فلما رآه مغتما قال : ما شأنك ! فحدثه الحديث فأدخله المنزل وقرب اليه الطعام وأعطاه خمسين دينارا فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره وحمله الحمالون الى داره فأنكرت الأم ذلك وقالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التى قدمتها الى ». وليس في هذه القصة ما يحملنا على انكارها أو على الشك في جملتها وفي الصورة العامة التى تؤديها الينا وهى أن الجاحظ كان في مبدأ حياته موزع الجهد بين مطالب العقل ومطالب العيش ، بين ارضاء همته وتخفيف هموم أسرته الى أن أتيح له أبو عمران فأخذ بيده

وأعانه وبعث في نفسه روحا جديدة حين خفت عنها ذلك الاحساس الدائب المسلح المرير بمطالب العيش وضرورة الحياة وسدده في تلك السبيل المحببة اليه سبيل العلم والأدب ووجهه الى تلك الغاية المرموقة التى كان يهفو اليها وذلك المجد العقلى الذى مضي نحوه غير ضائق ولا معوق .

انها الفرصة التى أتيحت للجاحظ لينمى ثروته ، وليضاعف معلوماته ، وليتصل بالكتاب الذى أحبه حبا عميقا فيغتنم الجاحظ الفرصة ، ويستجيب لهذه المناسبة ويحمد لابن عمران هذه اليد الكريمة التى قدمها له ، ثم يمضي الجاحظ في طريقه الى المجد فيتصل بسبب آخر من الأسباب التى أتاحت له حياة التأليف ويتصل بأستاذه النظام ويرى فيه العقل المفكر ، والمعلم النابه والعالم المدفق الخبير ، ويحاول جاهدا أن يسير على نهجه ، وينسج على منواله ، ويقتفى أثره ، والنظام مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة بين علماء البصرة وشعرائها وهو مع ذلك شيخ من شيوخ المعتزلة ، ورجل من كبار رجالها يدافع عن آرائها ، ويكافح في سبيلها ، ويعمل على نشر فكرها ومذهبها ومن ثم فكان لزاما على الجاحظ أن ينزل الى ذلك الميدان الى جوار أستاذه مدافعا عن آراء المعتزلة وأفكارها ، ومتصديا لكل من يعائدها أو يعاديها بل لقد انفرد بآراء خاصة من بين المعتزلة تابعة عليها لفيف من الناس وكان لها أنصارها ومريدوها وتلاميذها ، وكان الجاحظ لسانا للمعتزلة مدافعا عنها مناصرا لها يوضح مشكلات ، مذاهبها الفكرية والروحية ويقف في وجه من يتعرض للمذهب ورجاله ويدافع عن نظرية الحسن والقبح والتعديل والتحوير وخلق القرآن وهكذا تجده قد ربى ونشأ في الاعتزال وحضر مجالسه واستمع الى المناقشات من حوله واشترك في جدال خصومه فعليه نشأ وعنه ناضل وله ألف وان خالف ائمة المذهب في مسائل نبعثه فيها فرقة سميت « الجاحظية » .

ذلك من شأنه أن ينمى في الجاحظ قوة الحجة ، ويذكى فيه روح الجدال ويدفعه الى التأليف دفعا ليؤيد فكرة يؤمن بها ، أو يدحض رأيا يعتقد أنه يخالف الحق ، ويبتعد عن الصواب وهكذا شرع الجاحظ المعتزلى يراعه البليغ في الرد على خصوم الدين وأصحاب الآراء الضارة وكل مذهب هدام بل لقد كان يرد على كل قول لا يحالفه الصواب والحكمة ولو صدر من مسلم سمع من شيخ من شيوخ البصريين أن الله تعالى جعل نبيه أميا لا يكتب لينفرد بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ولقصره على معرفة مصالح الدين وليجعله نبيا ويتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى فانما نقصه ليزيده ومنعه ليعطيه . ولم يرض الجاحظ بهذا القول فقال : وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد الا الخير وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة وأداة فرض الشعر كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة الى ما هو ازكى بالنبوة واشبه بمرتبة الرسالة لما كان ذلك مانعا من وجوب تصديقه .

وهكذا كان الجاحظ قوة متدفقة قوية في الدفاع عن الدين وفي دفع خصومه عن حياضه وفي رد الآراء الخاطئة وتصحيح الافهام في كل ما يتصل بالاسلام . ورجل هذا شأنه يتصدى لنشر دعوة . ويتقدم ليقود جماعة ، هو في حاجة الى قلم طيع ليسجل آراءه وأفكاره ، ويدون انطباعاته وخلجاته ، ويعلن فكرته في قوة وصراحة ووضوح . على أن هناك سببا ثالثا من الاسباب التى أتاحت للجاحظ حياة التأليف وهو لا يقل عن السببين السابقين . ذلك هو مجتمع البصرة فقد كان يموج بالحركات الفكرية ، ويضطرب بالآراء المتحررة ، والمذاهب المختلفة ، وكان المجتمع مشدودا الى هذه الحركات العلمية والادبية بكل أعصابه وانتباهه ، يقرأ كل جديد ،

ويشارك في كل رأى ، ويهتم بكل قضية معروضة ، ناقدا تارة ، ومعارضا أخرى ، ومؤيدا مرة ثالثة • ان مجتمعنا هذا شأنه يتصل بعلمائه وأدبائه ، ويرتبط بشعرائه ومفكريه ، ويجذب نفسه اليهم أو يجذبهم الى قضاياه ومشكلاته لا شك أنه يدفع الادباء والعلماء المفكرين الى أن يعيشوا معه ، يرتقون بأفكاره ويتسامون بعاطفته، ويمدونه بمزيد من الفكر الراقى ، والعلم السديد •

وهكذا وجد الجاحظ نفسه مفكر هذا المجتمع وأديبه يحس باحساسه ويشعر بشعوره فهو أقدر على تصوير آلامه وآماله وأجدر به أن يسهم جاهدا في حل مشكلاته • وفي رأيى أن الجاحظ لم يبخل على مجتمعه في ذلك المجال بالقدر الذى أتيح له من الفهم والوعى والادراك ، وبالدرجة التى وصل اليها من البلاغة والفصاحة والبيان، وبالمقدار الذى أوتيه من الحجة والمنطق وقوة التعبير •

ولست أنسي في مجال البحث عن الاسباب التى أتاحت للجاحظ أن يكون مؤلفا له شأنه ذلك العامل النفسي الذى سيطر على الجاحظ طوال حياته فقد كان طلعة تواقا الى المجد ، ميالا الى أن يقتعد مكانه في الصدارة من أعلام الرجال ، ولم يتخل عنه ذلك الخلق ، أو يتخل هو عن ذلك الخلق حتى بعد أن فتحت عليه أبواب الخير ، ووصل الى ما لم يكن يحلم به في طفولته أو صباه • دخل عليه صديق له فسأله كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحدا واحدا حالى أن الوزير يتكلم رأيى وينفذ أمرى ويواتر الخليفة الصلات الى ،وآكل من لحم الطير أسمنها وألبس من الثياب أفخرها وأجلس على ألين الطبرى وأتكىء على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج فقال له سائله : الفرج ما أنت فيه • قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف الى فهذا هو الفرج ••

ان رجلا يحمل بين صدره هذه النفس الطموح المتوثبة ، ويضع أمامه هذه الآمال العريضة الواسعة لهو رجل يضـــيق به مجتمع البصرة ، وينزع الى مجتمع أوسع ، يرضي فيه نفسه المتطلعة الى المجد ، ويشبع فيه غرائزه المتشوقة الى العلا ، ولم يكن هنـــاك سوى بغداد عاصمة الحكم ومقر الخلافة يتشبع فيه هذه النزعة ، ولتروى منه هذه الغلة ولكن كيف السبيل اليها ، وما الطـــريق الذى يمكن أن يربطه بها ، ان الجاحظ لا تعدمه الحيلة الى ما يبغى ، ولن تنقصه الوسيلة الى ما يريد فهو يتخذ من التأليف طريقا يبلغ به الى غايته ، ويحقق من أهدافه ويصل عن طريقه الى ما يجب من شهرة وذيوع ، ويرجو من مكانة وسمو ، ويأمل من جاه ونفوذ وكذلك سلك الجاحظ طريقه الى الرفعة وحقق لنفسه ما تصـــبو اليه من مكانة وســـلطان ٠

تلك أهم الاسباب التى جعلت من الجاحظ مؤلفا عظيما ، وخلقت منه الكاتب الماهر والاديب القدير ٠ ولنا أن نسأل بعد ذلك فيم ألف الجاحظ وما منهجه في التأليف ، أو بمعنى أوضح في أى ألوان المعرفة الف الجاحظ كتبه ، وما الاسلوب الذى انتهجـــه الجاحظ في كتبـه ومؤلفـــاته ؟

ليس من الحق أن نقول ان الجاحظ اختص بالكتابة لونا من ألوان المعرفة دون لون اخر فقد كتب في الفقه والميراث والمنطق والتوحيـد والبلاغة والادب والفلسفة والسياسة ، والاخلاق والاقتصاد والنبات والحيوان والقصص والتاريخ وبذلك يكون الجاحظ قد طرق أبواب المعرفة جميعها ، ونزل الى كل ميادينها يؤلف في كل فرع ويكتب في كل جانب حتى قيل ان مؤلفاته قد وصلت ثلثمائة وستين مؤلفا ٠

وقد ترك الجاحظ آثارا فكرية وأدبية ودينية نالت اعجاب الباحثين

في تاريخ الفكر العربى ولكن ضاع الكثير من هذه الآثار فان ما بقى منها يقوم شاهدا على ما كان للجاحظ من ملكة علمية ، وفكر ناضج ، وبراعةقوية اذ كان أكثر الناس حبا للقراءة والكتابة يقـــول عنه المسعودى « لا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفا منه » وهو أحد أربعة من معاصرين اشتهروا بكثرة التأليف بل هو أكثرهم تأليفـا منهم هشـــام الكلبى وقـد بلغت مؤلفاته حوالى مائة وتســعة وثلاثين مؤلفا ، وأبو عبيدة الذى بلغت مؤلفاته نحو مائتى مؤلف ويقول عنه الجاحظ « لم يكن في الارض خارجى ولا جماعى أعلم بجميـــع العلم فيه » ثم المدائنى وكتبه نحو المائتين ويقول المسعودى عنه : انه كان كثير الكتب الا أنه كان يؤدى ما سمع .

وكان يقال : أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا : أبو حنيفة في فقهه والخليل في أدبه والجاحظ في تأليفه وأبو تمام في شعره .

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس أما الفقه فعلى أبى حنيفة وأما الكلام فعلى ابى الهذيل واما البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة فعلى الجاحظ . وكان من المعجبين به المقدرين له الذاهبين مذهبه . وأزرى رجل بالجاحظ في مجلســـه فسكت عنه ثم قال : لم أجد أبلغ من تركه ولو وافقته لنظر في كتبـه وصار بذلك انسانا ،ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا .

ان الحديث عن مؤلفات الجاحظ حديث طويل ، ولو رحنا نعرض لما ألف وكتب ونناقش كل ما سجل ودون لامتد بنا البحث ، وشـط بنا الحديث ولكن الذى يعنينا في هذه العجالة أن نحدد منهج الجاحظ في الكتابة ، وأن نوضح أسلوبه في التأليف .

لقد كان اتجاه الجاحظ الى صناعة التأليف والكتابة من الاحداث

البارزة في تاريخ الكتاب العربى ومن الحدود الظاهرة في تطوره فقد خطا به خطوة جديدة ، وسلك فيه مسلكا جديرا بذلك العقل المفكر كانت صناعة التأليف لا تزال تخطو خطواتها الاولى ، لم تنهج لها سبيلا واضحة مرسومة معبدة اذ كانت لا تزال حميلة على غيرها ، معلقة بمجالس الدرس والمذاكرة والمناظرة فهى الى طور التدوين أقرب منها الى طور التأليف فلم تصبح بعد أمرا مستقلا تمام الاستقلال فيعدها أصحابها بهذا الشأن بل هى تدوين لاصل ما تقوم به هذه المجالس وما يدور عليه حديث أصحابها هذا الى أن فن الكتابة كان لا يزال يتعثر في قضاء حاجة العلماء والادباء وهذه اللغة التى طاعت وسلسلت وانقادت لالسن الخطباء والمتكلمين كانت لا تزال نافرة متأبية على أقلام الكتاب والمؤلفين وليس كل من يملك القدرة على الكلام والجدل والخطابة يملك بذلك القدرة على التأليف والكتابة وهكذا كان الكتاب العربى في ذلك العهد جافيا مقتضبا لا رونق له ولا ماء فيه والى هذا الطابع يشير أبو الحسن الاخفش حين قال الجاحظ له : « أنت أعلم الناس بالنحو فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟

وما لنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك نقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله وليست هى من كتب الدين ولو وضعها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجاتهم الى فيها وانما كانت غايتى المنالة وأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس ما لم يفهموا وأنا قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت . ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلى في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها » فالاخفش يشهد في هذه العبارة أن الغموض هو

طابع التأليف في عصره وان كان يلتمس لنفسه العذر فيه بأنه تدبير قصد اليه قصدا لا ضرورة حمل عليها حملا وما أكثر ما ينخدع الناس في خاص أمورهم وفي تفسير تصرفاتهم ٠

كذلك كانت صـــناعة التأليف والكتابة في ذلك العصر الى أن عالجها الجاحظ وتهيأ لها فاعتبر الكتاب شيئا مستقلا وصـــورة كاملة في نفسها تؤدى وظيفتها منفردة عن صاحبها لان شيئا تابعا له معلقا به ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظى نمطا جـديدا في التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ويتجه الى جمهرة القراء على اختلاف قواهم ومداركهم الا الى طائفة خاصة منهم فهو عامى خاصي وهذه نظرة جديدة الى الكتاب العربى في ذلك الوقت ووضع له في موضـعه الخاص به ٠

وقد مضي أبو عثمان على ما ينبغى أن يكون عليه أسـلوب الكتاب اذ يقول : « وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهـام معانيه حتى لا يحتاج السامع لمـا فيه من الروية ويحتـاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو وبحطه عن غـريب الاعراب ووحش الكلام وليس له أن يهذبه جدا وينقحه ويصـفيه ويروقه حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضـوله وأسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يحدد لهم افهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » ٠

وهكذا كان منهج الجاحظ في كتبه بساطة في اللفظ ، وسـهولة في التعبير وأيضاح للمعنى في غير تعقيد ولا ابهـام ، وليس معنى ذلك أنه كان يميل الى الابتذال في القول ، او التفاهة في الاسـلوب

ولكنه كان رائع المعنى قوى العبارة يعرف كيف يجيد الحديث ، ويختار اللفظ وينتقى الكلمة المناسبة للمعنى المناسب .

اتخذ الجاحظ من سلطان العقل أساسا لبحثه العلمى ، فهو يدعو الى التفكير ويهتم بالمنطق ، ويرفض في اصرار وقوة كل أسطورة لا تتفق مع سلامة العقل ، أو خرافة لا تثبت لقوانين العلم يقول في بعض كتاباته « أكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرا ، وأكثرهم تفكرا أكثرهم علما واكثرهم علما ارجحهم عملا كما أن أثر البصراء رؤية للاعاجيب أكثرهم تجارب » . ويمضي في ذلك الى حد أنه يرفض الاعتماد على الحواس وحدها .

وسبيل الجاحظ في أثناء بحثه أن يتحرر من المألوف ، ويتجرد من التقليد أثناء بحثه ، ويحاول أن يصل الى الحقائق بفكره المجرد ، ورأيه الخالص ، وتجربته الاكيدة ، فلا يخضع لرأى سابق ، ولا يتأثر بفكر سالف ، وبذلك يرى الحقيقة ناصعة ، ويصل الى ما يريد أن يصل اليه بجهده وتعبه وعنايته وهو بهذا يفتح باب التجديد واسعا على مصراعيه أمام أى باحث أو عالم ويقول في ذلك : اذا سمعت الرجل يقول : « ما ترك الاول للاخر شيئا فاعلم أنه مايريد أن يفلح » ثم هو يهتم بالتجربة والملاحظة ، ويدعو الى التأمل والتفكر فهو يقول « لا تشفينى الا الملاحظة » وكان يتخذ من الملاحظة والتجربة أسلوبا للوصول الى الحقائق ، وطريقا للتأكد من المعرفة فهو يذكر آراء العلماء في أن عرق الخال أنزع من عرق العم وأن نصيب الامهات في الأولاد أكثر فيقول : ان أكثر ما تلد الأمهات فاذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فاحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك فانظر ايها اكثر رجالهم ام نساؤهم ، وبذلك يتخذ من التجربة اساسا للدراسة ، ومن الملاحظة

سبيلا للمعرفة ، الا يفوته أن ينظر الى الحيوان في نشأته وموطنه وخصائصه ، ويراقب النبات في نموه وازدهاره واثماره ، ويشاهد الطير في غدوها ورواحها ومبيتها وايضاحها ، ثم يصدر أحكامه ، ويسجل ملاحظاته ، ويدون آراءه فتأتى في أقرب صورة الى الحقيقة ان لم تكن هى الحقيقة ذاتها وكان الشك سبيل الجاحظ الى اليقين ولعله تأثر في ذلك بأستاذه النظام فقد كان النظام يقول « الشك أقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد من أعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » وعلى ضوء ذلك سار الجاحظ حين يقول : أعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ليتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف ، وقد شك الجاحظ في كل خبر تناقض واستمال وفيما امتنع على الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة وقرر أنه اذا خرج الخبر من هذين البابين وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك التثبت وان يكون الحق في ذلك ضالتك ، والصدق هو بغيتك كائنا ما كان وقع منك بالموافقة أم وقع منك بالمكروه ذلك منهج الجاحظ في البحث ، وذلك طريقه الى المعرفة ثم هو بعد ذلك يدعو الى الجمع بين التخصص العلمى والثقافة العامة فان ذلك يكسب العلم روحا وقوة ، ويمنحه حياة وتجددا . ويبعث فيه من الحياة النشاط ما يجعل جماهير الناس تقبل عليه في نهم ، وتترقبه في لهفة ، وتنتظره في شوق ، وكذلك كانت كتب الجاحظ ، وعلى هذه الصورة كانت مؤلفاته ، فهو لم يكتبها الا بعد درس طويل ، وخبرة واسعة وبعد أن عانى من الابحاث ما عانى ، ولاقى في سبيلها ما لاقى ، وأحاط بأكثر ما كان في أيدى عصره من ثقافات ومعارف ، وعرف ما كان في زمنه من أعاجيب وحقائق ، ولم

يحتقر شيئا يدخل في باب العلم والثقافة ولم يستنكف أن يأخذ من صغار الناس كما كان يأخذ من كبارهم ، وكشف كل غامض ، واستقر أكل باب ، واستنبط العديد من مجاهيل العلم كل ذلك في عصر كان الناس فيه يؤثرون السماع من الاسانيد والاخذ عن الرواة ، ويفضلون ذلك على مطالعة الاسفار ، وقراءة دواوين العلم ، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيرا ، ويرون على الدوام الاخذ من الافواه ، فوجه أفكار أمته وجهة أخرى ورغبها في الكتاب ليكون للناظرين فيه كل ساعة موردا يستقون من معينه ، فصح لقومه ان يستمروا في اقتناء الكتب ويتباروا في جمع كل وسائل المعرفة من كتاب وأستاذ ورحلة ومشافهة ومناظرة وجدل ورواية ويضمنوا تأليفهم خلاصة ما جمعوه وأحاطوا من آراء ومذاهب .

وكرر في الناس أن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم الجماهير ، وصداقة الملوك ، والثراء العريض ، ومن ثم أولع أبو عثمان الجاحظ بالكتاب وبالتأليف حتى مات وكتبه تنهال عليه وتدفنه بينها .

وتنطفىء بذلك الشعلة التى ظلت قرابة مائة عام أو يزيد متقدة متوهجة تضيء لبنى البشر طريق المعرفة والنور .

ا.د.مصطفى محمود يونس
رئيس قسم الأدب والنقد
وعميد كلية اللغة العربية